الباب الرابع

الديمقراطيَّة والسَّعادة

obeikandl.com

obeikandl.com

هل حقَّقت الديمقراطيَّة المتفوقة في الآلة والمادة حُلمَ البشريَّة (السعادة) ؟!

ولندع الجواب للأستاذ الدكتور «**جودا**» أستاذ الفلسفة الإنجليزيَّة[١] حيث يقول: «إنَّ المدنيَّة الحديثة ليس فيها توازن بين القوة والأخلاق، فالأخلاق متأخِّرة جدًّا عن العلم ... فتوالي الحروب الفظيعة الهائلة دليل إفلاسه، إنه يُربي نشأه ليموت في الحروب، وبالأمراض الناشئة عن الشذوذ الجنسيِّ والخمور والمخدِّرات والدخان وبالانتحار، وقد خوَّلت له العلوم الطبيعيَّة قوة قاهرة، ولكنه لم يُحسن استعمالها فكان كطفل صغير أو سفيه أو مجنون.

انظر إلى الطائرة يُخيَّل إليك أنَّ صانعيها في علمهم ولباقتهم أبطالٌ في عُلُوِّ عزمهم وجرأتهم، ولكن انظر الآن للمقاصد السيِّئة في استعمالها قذف القنابل وخاصَّة الذَّريَّة، وتمزيق جثث الإنسان، وخنق الأحياء، وإحراق الأجساد، وإلقاء الغازات السَّامة، وتقطيع المستضعفين الذين لا عاصم لهم من هذا الشَّر إربًا إربًا، وهذه إمَّا مقاصد الحمقى أو مقاصد الشياطين ». اهـ.

لقد خنقت مداخن المصانع الروح الإنسانيَّة في الغرب، لقد قتلت الآلة صانعها ومهندسها، لقد تكدَّست أكوام الإنتاج والآلات على المجتمع الغربيِّ فسحقته.

لقد تكوّمت أكداس النقود على القلب الغربيِّ فخنقته، لقد انطلق إشعاع الذرَّة فأباد الرحمة والأخلاق في أعماق الإنسان.

• وانظر إلى مصائب الفراغ الروحيِّ، وانعدام السعادة في الغرب، ومَنْ تشبَّه بهم ونهج نهجهم، من ولوغٍ في المشروبات الكحوليَّة، وإدمان المخدِّرات، والأمراض العصبيَّة العقليَّة والعضويَّة، وانتشار ظاهرة التمرُّد، وكثرة الجرائم، والسُّعار الجنسيّ، وأمراض

(١) كتاب: «**سخافات المدنيَّة الحديثة**» (المقدمة)، وإنْ شئت المزيد فاقرأ كتاب: «فوضى العالم في المسرح الغربي» ليونسكو الفرنسي (ترجمة: عماد الدين خليل)» وكتاب: «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» أبو الحسن الندوي.

الجنس، والانتحار، وسرقة ثروات الشعوب، ومحاولة احتلال أراضيهم.

وإذا أردت المزيد فانظر إلى الأرقام المذهلة عن أمراض هذه الحضارة مِنْ واقع تقاريرهم، والتي يمكنك الاطلاع عليها بسهولة خلال الشبكة الدوليَّة (الإنترنت)، لتتعرَّف على عدد مُدمني الخمر في هذه الدول الذي يفوق (٤٥٪) من عدد سكانها، وأعداد الذين يتعاطون المخدِّرات يفوق (٤٩٪)، وعدد المرضي في مستشفيات الأمراض العقليَّة يشغلون (٥٥٪) مِنْ جميع أَسِرَّةِ المستشفيات، وعدد الذي يُعفَوْنَ مِنَ الخدمة في القوات المسلحة بسبب اضطرابات نفسيَّة وعقليَّة (في الحرب العالميَّة الثانية ٤٣٪)، وفي السويد ـ وهي أرْقى بلدان العالم مِنْ ناحية الدخل والتأمينات الاجتماعيَّة ـ نسبة المرضَى عقليًّا ونفسيًّا (٢٥٪) مِنْ عدد السكان، وتنفِق الدولة (٣٠٪) مِنْ ميزانيَّتها على علاجهم، ونسبة المرضى الذين يخرجون مِنْ وظائفهم بسبب هذه الأمراض يساوي (٥٠٪) مِنْ مجموع المخرَجين.

أمَّا نسبة الجرائم فقد كانَ سُدُس العائلات (الأمريكيَّة) ـ على سبيل المثال ـ قد تعرَّضوا لجرائم. أمَّا الجنس وسُعارُه فحدِّث عنه ولا حرج، وكذلك الشَّاذِّين جنسيًّا، ولك أنْ تسأل: كَمْ عدد مستشفيات الأمراض الجنسيَّة في أمريكا (يزيد عن ٦٥٤ مستشفى)، وعندما صدرت دائرة المعارف البريطانيَّة في الأربعينيَّات ذكرت: أنَّ (٩٠٪) مِنْ الشباب الأمريكيِّ مصابٌ بالزُّهريِّ، و (٦٠٪) مصابًا بالسيلان، و (٤٠٪) مصابًا بالبرود الجنسيِّ. وقد صرَّح **كيندي** عام ١٩٦٢م: «**أنَّ (٨٥.٧٠٪) مِنَ الشباب الذين يتقدَّمون للجنديَّة غير صالحين، لأنَّ الشهوات التي غَرِقوا فيها أفسدت لياقتهم الطبيَّة والنفسيَّة** »(١).

• فالغرب الآن في طَوْرِ الاستبدال والتغيير، ولكن مَنْ المرشَّح لوراثة الإنسان الغربيِّ في قيادة البشريَّة؟ وأيُّ حضارةٍ سوف تتقدَّم بإذن الله ﷻ في قيادة البشريَّة؟ وأي منهجٍ

(١) انظر كتاب «الثورة الجنسيَّة لأبالوش»، وكتاب عبد الله ناصح علوان «إلى كلِّ أب غيور».

يمكن أنْ يصلحَ وتسعدَ به الإنسانيَّة؟!

يقول «**شبنجلر**»: « إنَّ للحضارة دورات فلكيَّة، تغرب هنا، لتشرقَ هناك، وإنَّ حضارةً جديدةً أوشكت على الشروق في أروع صورة «هي حضارة الإسلام» الذي يملك أقوى قوةٍ روحانيَّةٍ عالميَّةٍ نقيَّةٍ »[١].

❁ ❁ ❁

• هل توجد عداوة بين الإسلام والديمقراطيَّة ؟!

يرى البعض من روَّاد مدرسة محمد عبده، ومنهم على سبيل المثال **د. صلاح الصاوي** في كتابه: «**الثوابت والمتغيرات**»: «أنَّ للديمقراطيَّة جانبًا يُعزِّه الإسلام ويزكِّيه، بل ويحضُّ عليه ويوجبه، منه حقُّ الأمة في تولية حُكامها، والرقابة عليهم، وعزلهم؛ وجانب يأباه الإسلام ويعتبره شِركًا وكُفرًا، وهو الحق من التشريع المطلق الذي تقرِّرُه الديمقراطيَّة العلمانيَّة للأمة».

• لذلك مثلًا إنْ قرَّر مجلس النُّواب أو الأمة إباحة الزِّنا وزواج المثليِّين، كما يحدث في دول الغرب، فهل يصير هذا قانونًا في بلاد المسلمين؟!

بالطبع مستحيل؛ لأنَّ هناك حدودًا وخطوطًا حمراء لا يمكن لملك أو رئيس أو مجلس نواب أو شعب مسلم أنْ يتعدَّاها. قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ [الطلاق:١].

• **ويرى البعض الآخر من علماء السنة:** أن الإسلام له نظام خاصٌّ مستقِلٌّ، لا شرقيٌّ ولا غربيٌّ، ولا اشتراكيٌّ ولا ديمقراطيٌّ، إنما هو منهج قائم بذاته متكامل، السيادة فيه لله تعالى، والهيمنة لأحكامه أولًا، وما تركه الشارع دون تحديد لِحِلٍّ أو تحريم أو حكم فهو مشروع للأمة الاجتهاد فيه بقواعد وضوابط تصونه مِنَ الهوَى والانحراف.

• والذين نادَوْا بالديمقراطيَّة في الإسلام، والاشتراكيَّة في الإسلام أصحاب هوًى، تجاهلوا أنَّ ما في الديمقراطيَّة مِنْ مميِّزات وخصائص نافعة إنما اقتبسوها مِنَ الإسلام

---

(١) كتاب «سقوط الحضارة»، واقرأ كتاب «عقيدة الإسلام أيديولوجيَّة المستقبل» د. مهدي عبود.

وخلافته المجيدة عبر القرون الطويلة، وصاغوها بما يناسب شعوبهم ومصالحهم.

ومثال ذلك:

- مثول الحاكم أمام القضاء والمساءلة، وأول مَنْ أقرَّه الإسلام وأسَّسه المسلمون.
- محاسبة الولاة والوزراء، وكذلك هدايا العمال، كل هذا نظَّمه الإسلام وطبَّقه الخلفاء.
- الترشُّح في الانتخابات وإنفاق المبالغ الباهظة في الدعاية أمر لا يُقرُّه التشريع الإسلاميُّ.

لذلك نقول: إنَّ هذه الأنظمة لا يمكن أن نقول إنها كلَّها شرٌّ مَحْضٌ، فقد يكون فيها خير ونفع، وأيضًا منها مساوئ ما زال جَنْي ثمارها العاطبة والفاسدة مستمرًّا بين الحين والحين إلى الآن.

- وقد بيَّن كثير مِنَ المستشرقين أن الديمقراطيَّة نظامٌ سياسيٌّ علمانيٌّ لا علاقة له بالدِّين، فالفصل بين الدِّين والحياة هو الذي تقوم عليه الديمقراطيَّة.
- وأنَّ الديمقراطيَّة تعني حكم الشعب (المشاركة الشعبيَّة)، أو أنْ تكون الأمَّة صاحبة السيادة ومصدر السلطات، وهي تركز في مهمَّتِها الأولى على رفاهية الجماعة، وإطلاق الحريات.
- والواقع يتناقض مع هذه المفاهيم، فالشعب لا يمكنه حكم نفسه، وليس هناك حقوقٌ مطلقةٌ، ولا حريَّةٌ مطلقةٌ، لأنَّ هناك علاقةً عكسيَّة بين الحريَّة والمساواة، فإذا فُرِضت على الناس المساواةُ، فهذا يعني أنَّ الحريَّة سُلِبَتْ منهم.
- وتتأسَّس الديمقراطيَّة على الانتخابات، وتغيير الحكام، وفصل الدين عن الدولة، وهذه الأخيرة تؤدِّي إلى تقسيم المجتمع الإسلامي في كل دولة إلى عدَّة مجتمعات متصارعة، وظهور الصراع القومي والعنصري والطبقي والطائفي.

❁ ❁ ❁

- لذلك نتساءل كما يتساءل غيرُنا: **ما الذي يمكن أن تكسبه الإنسانيَّة وتحقِّقه من مكاسب وهي بعيدة عن الإسلام ونظامه الربَّاني ؟!**

• فالديمقراطيَّة نوع مِنَ الابتذال الحضاريِّ، وما نادى بها إِلَّا أصحابُ المصالح والشهرة والانتكاسة، وجرِّ الناس إلى مشكلات التصادم، وويلات الحروب وفجعاتها، ولا سبيل لسعادة دول الإسلام والدول العربيَّة إِلَّا بالعودة للإسلام، والاعتصام بحبل الله، وعدم التفرُّق والاختلاف؛ لأنها به تميَّزت وفاقت كلَّ الدنيا، وتفوَّقت على كل ما أنتجته العقول البشريَّة، وتلبَّست بالمبادئ والفلسفات على مرِّ الزمن، يكفي توافق الإسلام مع العقل والفطرة، وجمعه بين متطلَّبات الجسد والروح، وبين الدنيا والآخرة، على النقيض تمامًا مع الديمقراطيَّة وتوابعها من العلمانيَّة والليبراليَّة والقوميَّة وغيرها.

• ويكفي أنَّ الفقه الإسلاميَّ قد استوعب جميع مطالب الحياة وملكة التوفيق بينها، وليس في الإسلام ونظامه السَّامي عقوبة إِلَّا لحماية المجتمع وصلاحه، والمحافظة على حقوق أفراده وحرياتهم، وإيجاد نوع مِنَ الأخوَّة الإيمانيَّة والروحانيَّة لا يمنحها إِلَّا الإسلام، لذلك نستطيع أنْ نقول: إنه لا مستقبل للدول الإسلاميَّة والعربيَّة في ظل التبعيَّة والتقليد لدول الغرب في أنظمته بِعُجَرِها وبُجَرِها دون تنقيح وتنقية وملائمة وموائمة، وإِلَّا لدَفَنَت نفسها في رُكَامِها.

❁ ❁ ❁

• في مؤتمر القانون الدولي بـ«**لاهاي** بهولندا سنة ١٩٧٣م» كانَ ضمن قراراته: «أنَّ الشريعة الإسلاميَّة تعتبر حيَّة وصالحة للتطور، وأنها مصدر التشريع العام للناس جميعًا، وأنها قائمة بذاتها وليست مستمدَّة مِنْ غيرها».

فلماذا نترك هذا التميُّز الذي ميَّزنا الله تعالى به، ومِنْ أجله خصَّنا بما لم يخصَّ به غيرنا مِنْ أُمَمِ الأرض أنْ جعلنا خاتم الأمم، وورثة الأنبياء، ورسولَنا خاتمَ الرُّسُل، وكتابَنا آخرَ الكتب السماويَّة وختامَها، ونحن أصحاب الوحي الصحيح دون غيرنا ممن حُرِّفَتْ كتبهم، ونحن أصحاب الرسالة التي لم تتبدَّل ولم تتغيَّر، ولم ينلها التحريف أو التبديل أو الكتمان، وأصحاب المنهج الذي يحمل في طيَّاته السعادة للإنسانيَّة، والسكينة وراحة البال والاطمئنان والرضا، والهمَّة العالية والأخوة، والذي يتميَّز بتحريم كل ضارٍّ وخبيث،

ويحفظ المجتمعات مِنْ أولاد الزِّنا وأطفال الشوارع، ويحفظ العقول والأنفس والأموال، ويحترم غيره مِنَ الأديان.

فالإسلام لا يخضع للتجارب، وكل ما ورد في الإسلام عن الكون والحياة والنظم والتشريعات يتَّفق تمامًا مع العلم والعقل والفطرة ومصالح الناس تمام الاتفاق، وشريعته صالحة لكل زمان ومكان ولكل الناس، في حين أنَّ التشريعات المخالفة له مِنْ حولنا قد أضلَّت الناس، وسببَّت لهم الشقاء والتعاسة.

• إنَّ هذه النظم والمسمَّيات مِنَ الديمقراطيَّة والعَلمانيَّة والاشتراكيَّة وغيرها أصبحت دينًا ومذهبًا يريدون من خلاله إكراه الأكثريَّة المسلمة على الخضوع لحكم الأقليَّة.

• واقرأ كتاب **رئيس فرنسا الأسبق** «**الديمقراطيَّة الفرنسيَّة**»؛ وهو يتحدَّث عن ويلات الشيوعيَّة والديمقراطيَّة، ومخالفتها للفطرة السليمة، وبُعدها عن الصواب، وانظر كيف وقف في نهاية كتابه حائرًا ينتظر المخلِّص.

• ويقول **جيب** في كتابه «**حيثما يكون الإسلام**»: «ما زال الإسلام في قدرته أنْ يقدِّم للإنسانيَّة خدمة سَامِية جليلة، فليس هناك أيَّة هيئة سواه يمكن أنْ تنجح مثله نجاحًا باهرًا في تأليف هذه الأجناس البشريَّة المتنافرة في جهة واحدة أساسها المساواة، والإسلام وحدَهُ هو الذي يستطيع أنْ يحسم منازعات دول الشرق والغرب». **اهـ**.

• والحق يجب أنْ يُقال وإن قلَّ ناصروه، وكثر مخالفوه، ومِنَ الحق الذي لا مراء فيه، أنَّ العرب ذو طبيعة خاصة لا يُصلح شأنها إلَّا دينٌ، وهذا الدِّين هو الذي يأخذ بها إلى العِزَّة والكرامة والرِّفعة والسيادة.

فليرفع المسلم رأسه عاليًا، مفتخِرًا بدينه وحضارته، وليكن على يقين أنه خير أجناس الأرض بلا منازع ولا منافس، وأنه سيِّد هذا الكون، وإنْ وَهِنْ أو ضَعُفَ أو أصابه فتور، فكل هذه عوارض، والأحداث هي التي تصنع الرجال في هذه الأمة ليعيدوا مجدًا تليدًا بأيدينا أضعناه.

فما حمل الإسلام وحضارته للناس إِلَّا الرُّقيَّ الثقافيَّ والاجتماعيَّ والروحيَّ والاقتصاديَّ والمعماريَّ والسياسيَّ، سموٌّ في تشريعاته، وسموٌّ في أحكامه، وسموٌّ في علاقاته الإنسانيَّة، والتسامح الذي اشتهر به عبر التاريخ، والوفاء بالعهود والمواثيق، مما جعله سيِّد الدنيا ومالكها قرونًا، لم يشهد التاريخ ولا الإنسانيَّة إلى يومنا هذا لغيره مثلما شهد للإسلام.

• ولقد جرَّبت الأمَّة في العصر الحاضر الاشتراكيَّة الشيوعيَّة كنظام فصارت أنيابًا حادَّة تنهش في جسد شعوبها والعالم مِنْ حولها، وأضحت ديكتاتوريَّةً وخرابًا في الاقتصاد والصناعة والزراعة، وتدهورت وتأخَّرت عشرات السنين.

• وجرَّبت الرأسماليَّةَ الديمقراطيَّةَ فجرَّتها إلى الانحلال والشذوذ وشيوع الفساد والرشوة، وانتشرت الجريمة وتجارة السموم والرقيق والبغاء وغسيل الأموال وغلاء الأسعار للسلع والخدمات، هذا هو الحصاد المُرُّ عبر السِّنين الماضية، جرَّبْناها وقضيناها سنوات مِنَ الذُّل والقَهر والتبعيَّة وعدم الاستقرار.

• ومِنْ جميل المفاجأة، أن تسطع شمس الحقيقة حيث يوجد شبه إجماع أنه ليس هناك مَنْ يستطيع القيام بالدور الحضاريِّ المرتقب إِلَّا أُمَّة واحدة هي أُمَّة الإسلام؛ وذلك بعد أنْ ذاق العالم ويلات الحروب والدَّمار، وتعلَّم كيف خسر العالم بانحطاط غير المسلمين، وتشبُّه المسلمين بهم، وأن الإسلام ونظامه وشرائعه وحضارته يتميَّز بخصائص ومميِّزات ينفرِد بها إلى يوم الدين.

• لذلك يجب علينا أنْ نعيَ جيِّدًا: أنْ ما نعاني منه مِنْ هزال وأمراض وأسقام أصابت جسد الأمة نتيجة إهمال دورنا القياديِّ للعالم، وتَرْك هذا الدور لعولمة ليس وراءها إِلَّا خراب الفِكْر، وتفرُّق الأمَّة، وتشتيت جهدها، وسرقة ثرواتها؛ فعندما تفسد الفطرة لا يوجد دين، وعند اختلال العقل أو نقصانه لا يُفهَم وحيٌ، ولأننا رضِينا بالدُّون والتبعيَّة، ونسينا وتناسينا أنَّ الله ﷻ قال لنا: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ

﴿١٣٩﴾ [آل عمران].

ومما يُدهِش عقل الناظر في أحوال البشر أنَّ هذا الدِّين لديه القُدرة أن يجمع الأمة الإسلاميَّة مِنْ أدناها إلى أقصاها، كما جمعها في أقلَّ مِنْ ثلاثين سنة، ثم تناول باقي الأمم في أقلَّ مِنْ قَرْنٍ مِنَ الزمان، وذلك لسهولة تعقُّله، ويُسر أحكامه، وعدالة شريعته؛ ولأنَّ فِطَرَ البشر تطلب دينًا ترتاد منه ما هو أمسُّ بمصالحها، وأقرب إلى قلوبها ومشاعرها، وأدعَى إلى الطمأنينة في الدنيا والآخرة، فأنَّى للديمقراطيَّة أنْ يكون لها مثل هذا الشأن؟!

دينٌ هذا شأنُه يجد إلى العقول منفذًا، وإلى القلوب مخلصًا بدون حاجة إلى دُعاة ينفقون الأموال الكثيرة والأوقات الطويلة، ويستكثرون مِنَ الوسائل، ونصب الحبائل لإسقاط النفوس فيه (كما يفعل المبشِّرون في الديانات الأخرى).

• إنَّ المتمسِّكين بالباطل، اليائسين مِنْ عزِّ الإسلام وعودته مِنْ جديد هؤلاء حَفَدُةُ الجهل وأعوان اليأس، يَهْرِفون بما لا يعرفون.

• يقول د. «**حسان حتحوت**» مدير المركز الإسلاميِّ في كاليفورنيا في حديث له: «إنَّ الشريعة الإسلاميَّة أعمال وفضائل وقدرة تقدح شرارة في النفوس المظلمة، فتضيء وتحيا وتنظر من جديد، وكأنها ترى الدنيا لأول مرة، وهي ليست خطابة أو طنطنة في ميكروفونات، ولكنها في حقيقتها رحمةٌ قبل أنْ تكون عقابًا، وأنها تصنع الضمير الصادق قبل أن تُنزِلَ العقاب، وتصنعَ خوفَ الله الذي يحفظ المسلم مِنْ نفسه، وليس خوفَ القانون ولا خوف الجلَّاد، كما يتهيَّأ الناسَ في الدول الغربيَّة الفرصة كلما غاب عنهم رقابة القانون والشرطة والكاميرات، انظر لما حدث في مدينة «نيويورك سنة ١٩٧٧م» بأمريكا عندما انقطع التيار الكهربائيُّ بضع ساعات، كرنفالٌ مِنَ السَّرِقة والنَّصب والقتل والاغتصاب والتدمير والنَّهْب للمحلات والأفراد، شارك فيه البيض والسُّود، الأغنياء والفقراء كالقطيع، ينهبون كل ما تقع عليه أيديهم دون سبب واضح، بما في ذلك السيدات مِنَ الطبقات الثريَّة البيضاء كُنَّ يشتركن في الكرنفال، حتى خرج

رئيس أمريكا باكيًا وهو يخطب في الناس، ويقول لهم: «لست أدري ماذا أقول لأولادي هل هذه هي حضارة أمريكا؟!.

إنَّ الحضارة الغربيَّة التي نهضت سوف تنهار، وقد انهارت بالفعل على صخرة الحقد والحسد والقِيَم الأخلاقيَّة، لأنَّ الاتجاه الغربي تطغى فيه الماديات على أيِّ شيء آخر.

• ويقول الأستاذ **فارس الخوري** ـ وهو من نصارى سوريا وكانَ وزيرًا بها ـ :

« إنَّ محمدًا ﷺ أعظم عظماءِ العالم، ولم يجئ الدهر بمثله، والدِّين الذي جاء به أوفى الأديان وأتمُّها وأكملُها، وإنَّ مُحمدًا أَودع شريعتَهُ المطهَّرة أربعةَ آلاف مسألة علميَّة واجتماعيَّة وتشريعيَّة، ولم يستطع علماءُ القانون المنصفون إلا الاعتراف بفضل الذي دعا الناس إليه باسم الله، وبأَنَّها مُتَّفقة مع العلم مُطابقة لأرقى النظم والحقائق العلميَّة، وإنَّ مُحمدًا الذي تحتفلون به وتُكرمون ذكراه. أعظم عظماءِ الأَرض كافَّة، فلقد استطاع توحيد العرب بعد شتاتهم، وأنشأ منهم أُمَّة مُوحَّدة فتحت العالم المعروف يومئذ، وجاءَ لهم بأعظم ديانة عيَّنت للنَّاس حقوقهم وواجباتهم وأُصول تعاملهم على أُسس تُعَدُّ أرقى دساتير العالم وأكملها»[١].

• يقول **صاحب المنار محمد رشيد رضا**: « مَلَاحِدة هذا العصر كقوم نوح مِنْ بعده أصابهم الغرور بفنون الإفرنج، وجعلوها حجَّة في تقليدهم أراذلهم في شرِّ رذائلهم، وتحقير أنفسهم وأمَّتهم ولغتهم العربيَّة، فَهُمْ شر مِنْ قوم نوح إذ كانَ تقليد قوم نوح لآبائهم تعظيمًا لهم، والبلاء كل البلاء عندنا مِنْ فساد أمرائنا وأغنيائنا، فهم في مجموعهم أو أكثرهم كملأ نوح شرُّ طبقات هذه الأمة وأشدُّها فسادًا وإفسادًا »[٢].

• هذه الديمقراطيَّة التي تبنَّت الحضارة الماديَّة فتقدَّمت في وسائل النقل والاتِّصالات

---

(١) كتاب «الإسلام والرسول في نظر منصفي الشرق والغرب» للشيخ أحمد بن حجر آل بوطامي.

(٢) «تفسير المنار» (١٢/ ٥٣). وقد نقلنا عنه ما رأيناه وافق فيه الحق، وقد ننقل عن أناس لا نتوافق معهم، لكن نقبل ما جاء منهم من الحق على ألسنتهم، أو أقلامهم، أو في كتبهم.

والعِمران، وتقدَّمت في المخترعات وعلوم الكيمياء والطبيعة والذَّرَّة والطبِّ والهندسة، كما تطوَّرت في مجال الأسلحة، ولم تتطوَّر بالقدر الكافي في الاهتمام بصحَّة الإنسان النفسيَّة، وتوفير بيئة مناسبة له بعيدًا عن التلوُّث العقليِّ والرُّوحيِّ والجسديِّ والأخلاقيِّ والاجتماعيِّ والتربويِّ والسلوكيِّ والبيئيِّ بنفس التطوُّر والسرعة المذهلة في تطوُّرِها الماديِّ، مما أدَّى ذلك إلى:

١- الفارق بين الحضارتين الماديَّة والإنسانيَّة أدَّى إلى فزع الإنسان، وعدم طمأنينته، وزرعت فيه الخوف مِنَ المجهول، وبدأت علامات القلق والحيرة تلازم إنسان العصر الحديث.

٢- ملايين القتلى والجرحى والمشوَّهين في حروبهم العالميَّة الأولى والثانية، رقم يُصيبك بالفزع والهلع مِنْ (٣٠) إلى (٥٠) مليون قتيل وجريح.

وما رأت الإنسانيَّة أسوأ مما فعله الغرب في محاكم التفتيش، وما فعله الإنجليز في أستراليا وفي بلاد الإسلام، وما فعلته أمريكا مع الهنود الحمر، وفي هيروشيما ونكازاكي، وما تفعله اليوم في العراق وسوريا ومصر واليمن، وأفغانستان وفلسطين، وغيرها.

٣- ملايين القتلى والضحايا مِنْ أمراض تلك الحضارة من أمراضٍ نفسيَّة وجنونٍ وقلق واضطراب وانفصام في الشخصيَّة، وزادت حالات الاكتئاب، وتدمَّرت الصحَّة النفسيَّة، وانتشر الانتحار والشذوذ.

٤- حضارة عُنصريَّة أعادت الإنسانيَّة إلى عصور الاستبداد والاستعباد، وشقاء أقوام لسعادة أفراد وثرائهم.

٥- لو كانت هذه الحضارة إنسانيَّة لما أُنفِقَت المليارات على سباق التسلُّح النوويِّ، ووَهْمِ الصُّعود إلى القمر، فهل هذا التنافس لبقاء الإنسان وسعادته أم لتدميره وشقاوته؟ ومَنْ يدفع تكاليف هذا العَتَهِ والجنون؟!

٦- كانت هذه الحضارة على حساب صحَّته وجهده وسعادته، فصار الإنسان يعمل كالآلة حتى يستطيع أن يدفع فاتورة الرفاهية، يعمل فوق طاقته لكي يستطيع أنْ يُنفق

على أسعار الخدمات المقدَّمة له مِنْ أجل رفاهيته.

فشرعوا له الاستدانة مِنَ البنوك وبطاقات الائتمان، حتى صار مطحونًا مديونًا مطاردًا، تلاحقه الهموم والدُّيون والأحكام والسجون، فوضعوا الشعوب في سجن كبير، واستعبدوهم بالقانون والدُّيون، وسخَّروهم بالعمل والكدِّ بالنهار، والهمِّ والحزن بالليل، حتى جفَّت العلاقات الاجتماعيَّة بين الأبناء والآباء والأزواج والأصدقاء، وصارت الماديَّة والمنفعة الذاتيَّة هي التي تحكم العلاقات الاجتماعيَّة.

وأماتوا البقيَّة الباقية مِنْ وقته وحياته بالملاهي والخمور والزِّنا والفجور إِلَّا قِلَّة مِنَ المصلحين والحُكماء، والذين ينادون ويحذِّرون مِنَ الخطر القادم.

• يقول **د. حسين مؤنس** في كتابه «**الحضارة**»: «إنَّ المخترعات والمبتكرات والكماليَّات كثيرًا ما تكون أعباءً على الإنسان وقيودًا تَحِدُّ مِنْ حريته وتُحْرِمُه أحيانًا مِنْ كرامته والعيش السعيد، انظر كيف يكِدُّ الإنسان ليسعى للحصول على سيارة ومُكَيِّف وسجاد وأثاث فاخر غالي، مما يزيد مِنْ أعبائه الماليَّة، ويُبعِدُه عن إمكانيَّات الأمان والاطمئنان، ويجعله في طاحونة لا يستطيع الخروج منها، ثم يتمُّ إخضاعه لضرائب، وفواتير، وقانون طوارئ أو إرهاب أو حظر تجوال».

• وتأمَّلْ قول **الأستاذ فاروق جويدة**[1] «**رموز كاذبة**»: «إنَّ الشيء الغريب في مصر الآن هو: هذه الظاهرة العجيبة في خلق رموز مزيَّفة، مئات الأسماء التي صنعتها الأضواء الكاذبة في شتَّى المجالات، وتراها تتساقط خلف بعضها كأنها ثمار فاسدة، تشعر بأنك أمام مؤامرة ضخمة لتقديم أشياء مشبوهة هدفها تشويه أذواق هذا الشَّعب، وإفساد ذاكرته الحضاريَّة، وهدم ما بقي له مِنْ تراث الأصالة والتميُّز».

❁ ❁ ❁

---

(١) جريدة الأهرام ملحق الجمعة ١٧/ ٤/ ٢٠٠١م ص (٣٤) تحت عنوان: «رموز كاذبة».

وقفة

ما الذي نتمناه في الرئيس الجديد؟

١ـ رئيس يدعو إلى التوحيد ونَبْذ الشِّرك؛ يقول شيخ الإسلام: «ومتى اهتمَّ الولاة بإصلاح دين الناس صلُح للطَّائفتين دينهم ودنياهم، وإلَّا اضطربت الأمور عليهم»
«السياسة الشرعيَّة»، ص٣١.

٢ ـ لا يُحابي أحدًا ولا يُجامله في إقامة الحدود وتطبيق القانون؛ فلا محاباة للقويِّ على الضعيف، ولا الشريف على الوضيع، ولا الوزير على الغفير، ولا الغنيِّ على الفقير.

٣ـ عادل يحكم بين الناس بالحقِّ والعدل؛ فالعدل أساس المُلْك، والمَلِك حارسه، والبناء ما لم يكن له أساس فمهدوم، والمُلِك ما لم يكن له حارس فضائع.

والإمام العادل: دعوته لا تُرد، ويوم القيامة في ظل عرش الرحمن (من السبعة)، ويكون في الجنة على منبر من نور عن يمين الرحمن جلَّ وعلا.

٤ـ يخاف من ظُلم العِباد؛ لأن الظلم ظلمات يوم القيامة، والحاكم الجائر (الظالم) يبغضه الله تعالى، ولا تناله شفاعةُ النَّبي ﷺ ، وهو أشدُّ الناس عذابًا يوم القيامة، والله ﷻ لا يرفع أمة لا يُنصَر فيها الضعيف، ولا يؤخَذ فيها على يد الظالم.

٥ـ لا يخلف الوعود، ويكون أمينًا على أمّته؛ لأن الكذب، والخلف في الوعد، والخيانة من صفات المنافقين.

٦ـ يرفق بالرعيَّة ولا يشق عليهم: [فالله تعالى رفيق يحب الرفق في الأمر كله]

٧ـ لا يغشُّ أمَّته، وينصح لهم، ولا يكذب عليهم؛ فمن غشَّ رعيَّته حُرِّمَت عليه الجنة، ودخل النار.

٨- يتَّقي الله في الرَّعيَّة؛ لأنَّ التقوى مخرجٌ مِنْ كلِّ ضيق، وسبب في التيسير، وطريق لمحبة الله تعالى، وفي نُصره وتأييد له، وسبب في الحفظ مِنْ كيد الأعداء ومكرهم، ولنزول البركات من السماء والأرض.

٩- أنْ تكون له بطانة صالحة تحضُّه على الخير، وترشده إليه وتعينه عليه، فإذا كان مجلس الحاكم من كبار العلماء الأخيار الأفاضل الذين يخافون الله، فإن ذلك زيادة له في دينه ودنياه.

١٠- أنْ يكون متواضعًا غير مُتكَبِّر؛ لأنَّ الكِبْر يحمل الإنسان على احتقار الناس وردِّ الحق، وعدم قبوله، والمتكبِّر يُحرَم مِنَ العلم والفهم الذي يدل على عظمة الله واتباع شريعته، والمتكبِّر مطبوع على قلبه، لا يكلمه الله يوم القيامة.، ولا يزكيه، وله عذاب أليم، كما يُحرَم مِنْ دخول الجنة.

١١- لا يحتجب عن الناس، ولا يُغلق بابُه دونَهم؛ فهو ليس أفضل من خير البشر محمد ﷺ.

١٢- يتفقَّد رعيَّته ويقضي حاجاتهم؛ فلا ينعزل عن شعبه، ويحمل همومهم ويعمل على تحقيق آمالهم.

١٣- يحافظ على ثروات بلده وأموال شعبه؛ لأن الله تعالى سائل كل راعٍ عما استرعاه أحَفِظَ ذلك أم ضَيَّعه، حتى يُسأَلَ الرجل عن أهل بيته.

١٤- أنْ يعود بنا إلى صدارتنا في الإنتاج والأخلاق وجودة العمل، وأن يهتم بالتلمذة الصناعيَّة والتعليم الفني والكليات العمليَّة التي تُخرِّج العلماء في شتَّى المجالات.

• فالإمام العادل (*):

كالرَّاعي الشفيق على إبله، والأب الحاني على ولده، والأم الشفيقة الرفيقة بولدها، وصيُّ اليتامى وخازن المساكين، فهو كالقائم بين الله وبين عباده، يسمع كلام الله ويُسمعهم، وينقاد إلى الله ويقودهم، وينظر إلى الله ويُريهم، لا يحكم بحكم الجاهلية ولا يسلك سبيل الظالمين، ولا يتسلط تسلط المستكبرين يشكر نعمة الله عليه، يحذر من فتنة المنصب، فالله سبحانه جعل بعض الناس فتنة لبعض، يقوم بالصلاح والإصلاح، فصلاح الحاكم صلاح الرَّعية، وفساد الحاكم فساد الرعية.

قال أمير المؤمنين عُمَر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما جاء أصحابه بأموال المدائن: «إنَّ قومًا أدوا الأمانة في هذا لأمناء»، فقال له عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنك يا أمير المؤمنين أديت الأمانة إلى الله تعالى فأدوا الأمانة إليك، عفَفْت فعفّت رعيتك، ولو رتعت لرتعوا».

❁ ❁ ❁

(*) جزء من رسالة **الإمام الحسن البصري** إلى الخليفة الأموي العادل **عمر بن عبد العزيز** «العقد الفريد» ج (١/ ٣٤).